مقومات التنغيم ودلالاته

د. عائشة خضر أحمد البدراني
جامعة الموصل / كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

تكتسب اللغة أهميتها إنطلاقاً من كونها وسيلة للتواصل الإنساني، ومن هنا تعددت الدراسات وتنوعت حول هذه الخاصية البشرية التي تتجسد وتتشكل من خلال منظومة صوتية لها سننها، إذ ((تتألف كل لغة من تنظيم صوتي تجتمع فيه الوحدات الصوتية وفق نسق معين لتصبح كلمات ومن بنى معجمية وصرفية ونحوية ومن أنظمة جملية تؤدي المعنى المقصود ويصبغه الاسلوب بصبغة معينة))[١].

وفي وسعنا أن ننطلق في هذا البحث من تعريف ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) للغة في أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[٢]، مستشرفين من مقولته هذه أفكاراً ومعطيات على صلة مباشرة بموضوع البحث، إذ تفصح عن وظيفة الصوت وهي التعبير عن الأفكار، ومن ثم تحقيق غرض ما والوصول الى دلالة ما، ونظرة هذا العالم الجليل تنطلق من ماهية اللغة ووسيلتها، من هنا تنطلق كثير من الدراسات من الأصوات بوصفها ركيزة لأي دراسة لغوية ((فدراسة الأصوات، ومعرفة أقسامها، وصفاتها، وما يعرض لها من تأثير هي البداية التي تنطلق منه أي دراسة لغوية)) [٣].

وبحثنا هذا على صلة مباشرة بالأصوات وبالتحديد علم الأصوات الوظيفي، فالأداء (الصوتي) الكلامي الذي يتجاذبه البشر لا يسير على وتيرة واحدة، بل تتنوع وتتغير نغماته بما يقتضيه سياق الحال والموقف والظروف المحيطة بالمتكلم والمخاطب، وهذا التنوع والتغير في نغمات الأصوات يعرف في اللسانيات بالتنغيم **(Intonation)**، وعند توصيف هذه الظاهرة

تتجلى أهمية ((الصوت اللغوي من حيث هو حدث إنساني وحركة تنتجها أعضاء النطق وتتلقاها أعضاء السمع وفي وصف الالة المصوته وفي وقائع الأحداث الصوتية، أي معالجة مخارج الأصوات وصفاتها وكيفية النطق بها وإنتقالها من المتكلم الى السامع بواسطة نشاط عضوي وحركي يظهر في علم التشريح والفسلجة)) [٤].

وتتبع هذه العمليات الفسلجية، في جانب مهم منها التغيرات الصوتية التي ترافق عملية النطق والتي تتنوع بتنوع طريقة نطق الصوت – في أثناء الكلام – وهذا بطبيعة الحال ناتج عن تغير يرتبط بتذبذب الوترين الصوتيين، يقوم أساساً على توترات منخفضة أقل من ٣٠٠ هرتز. فالنغم، بوجه عام، يتعلق من المنظار الفيزيولوجي بنظم النفس الخارج من الرئتين، ذلك أن الضغط الآتي من عضلات البطن والصدر يزداد تدريجياً في بداية الزفير ثم يضعف في النهاية، مما يؤدي الى إرتفاع تدريجي في علو الصوت يتبعه إنخفاض فيه، وهذا يعني أن التنغيم لا يصاحب الفونيم أو المقطع، بل يستند الى تركيبه أكبر مثل الكلمة أو الجملة، إلا أنه يساعد في تمييز النبر الذي يقع على المقطع أو الكلمة[٥]. من هنا كان تتبع هذه الظاهرة ورصد مقوماتها من خلال التراكيب التي تتشكل عبر الأداء الصوتي، ولعل ((المبرر لإمتداد التحليل الفونيمي ليشمل الملامح الصوتية المرتبطة بحدود ما بين الكلمات، هو أن كل إختلافات صوتية في أي مكان ومن أي نوع يكون لها صفة التقابل أو التميز في بعض المحيطات الفونولوجية يجب أن تلحق بفونيم أو فونيمات ملائمة، و يكون لها مركز لغوي يماثل ذلك الذي أعطي للفونيمات التركيبية من العلل والسواكن على الرغم من أن الظواهر الصوتية الموجودة تختلف في كل نوع))[٦]. ومن هذا المنطلق تبرز علاقة التنغيم بعلم الأصوات النظري من جانب، وأهميته ومكانته في علم الأصوات الوظيفي.

ولا يختلف الباحثون في علم اللغة في تعريف التنغيم، لذا يمكن تلخيص كلامهم فيه بتعريف ذكره عالم من علماء اللغة بقوله (وهو مصطلح يدل على إرتفاع الصوت وإنخفاضه في الكلام، ويسمى أيضاً موسيقى الكلام، إننا نلاحظ أن الكلام تختلف نغماته ولحونه وفقاً لأنماط التراكيب والموقف، ويساعد هذا الإختلاف على فهم المعنى المقصود)[٧]. ومن خلال هذا التعريف يمكننا الولوج الى مقومات التنغيم ودلالاته.

أولاً : مقومات التنغيم

يستند التنغيم بوصفه ظاهرة صوتية على صلة مباشرة بالأداء (الصوتي) الكلامي الى عناصر صوتية وغير صوتية يتشكل بفعلها وتتكون ملامحه، ولابد من التنويه في هذا المقام الى أنه لا توجد معايير وضوابط يمكن أن يقيد بها التنغيم، ((لذا فإن ايجاد قواعد عامة توضح التنغيم وأهمية ما يسمى بدرجة الصوت **(Pitch)** وتتابعها إنما هو على سبيل المقاربة، فالتنغيم مجموعة معقدة من الأداء الصوتي بما يحمل من نبرات، وفواصل صوتية، وتتابع مطرد للسكنات والحركات التي يحدث بها الكلام وتتميز دلالاته)) [٨]. ويفرغ ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) في هذا السياق النغم (التنغيم) الى ثلاثة مكونات (الحدة والثقل والنبرات)، ولكنه عند تحليل مفهوم النبرة يتوصل الى كشف فني دقيق يفصل فيه أحوال النغم وذلك يدفع عن العرب تهمة عدم رصدهم لهذا الأسلوب في الكلام وندرة الدراسات العربية القديمة فيه، فيكاد يأتي هذا العالم الجليل على خصائصه (التنغيم) كما يضبطه اليوم علم اللسانيات[٩] وذلك بقوله ((ومن أحوال النغم : النبرات، وهي هيئات في النغم مدية، غير صرفية يبتدىء بها تارة، وتخلل الكلام تارة، وتعقب النهاية تارة، وربما تكثر في الكلام وربما تقلل، ويكون فيها إشارات نحو الأغراض، وربما كانت مطلقة للإشباع، ولتعريف القطع، ولإمهال السامع، ليتصور، ولتفخيم الكلام، وربما أعطيت هذه النبرات بالحدة والثقل هيئات تصير بها دالة على أحوال أخرى من أحوال القائل أنه متحير أو غضبان أو تصير به مستدرجة للمقول معه بتهديد أو تضرع أو غير ذلك، وربما صارت المعاني مختلفة بإختلافها مثل أن النبرة قد تجعل الخبر إستفهاماً، والإستفهام تعجباً وغير ذلك، وقد تورد للدلالة على الأوزان والمعادلة، وعلى أن هذا شرط وهذا جزاء، وهذا محمول وهذا موضوع)) [١٠] ومن خلال تتبعنا للدراسات التي رصدت التنغيم وجدنا أن هناك عناصر صوتية وأخرى غير صوتية يتشكل منها وسنعرض لها فيما يأتي :

أ- العناصر الصوتية

كما هو معلوم يتشكل التنغيم من منحنى الجملة اللحني، أي تغير إرتفاع الصوت في السلسلة الكلامية[١١]، ومن هذا المنطلق تعد عملية نطق الأصوات ضمن الأداء الكلامي بكل ما يرافقها من تغيرات في أعضاء النطق وكيفية خروج الهواء أثناء النطق عاملاً مهماً في تشكيل التنغيم، هذا من المنظار العام الفيزيولوجي، أما إذا أمعنا الفكر في جملة أي جملة كأن تكون تعجبية أو إستفهامية أو توكيدية سنجد تغيرات عديدة علواً وهبوطاً مداً وتكثيفاً كل ذلك ينتج عن الضغط على كلمة معينة أو مقطع معين ضمن الجملة دون غيره، وهذا يغير منحى الجملة اللحني، ومن ثم يغير في دلالتها وفقاً لذلك التغير. ومن العناصر الصوتية التي تترك أثرها في الكلام هو النبر **(Accent)**، وتبرز قيمته التمييزية أكثر عندما يرتبط بالتنغيم، لأن الأصوات مع النبر تأخذ حظها من الوضوح والعلو والإمتداد، من هنا يعد النبر عنصراً مهماً في الأداء الصوتي، ويندرج مع التنغيم ضمن ما اصطلح عليه عند علماء علم اللغة بـ (الفونيمات فوق التركيبية).

إن الكلام الذي ننطقه على مستوى الكلمة أو على مستوى الكلمات المؤتلفة ضمن الجمل لا يسير على وتيرة واحدة من حيث العلو والوضوح والقوة والضعف في النطق، وذلك بحسب الموقع الذي تقع فيه الأصوات أو الكلمات ضمن الكلام[١٢]، وهذا إنما يحدث بسبب الضغط على مقطع معين أو كلمة معينة، من هنا يعرف النبر بأنه ((الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة ليصبح بارزاً وواضحاً في السمع أكثر من غيره من مقاطع الكلمة، وينتج عن ذلك علو الصوت المنبور وإرتفاعه)) [١٣].

إن الضغط على كلمة معينة أو مقطع معين في الكلام يستدعيه السياق ومتطلبات الموقف الكلامي لافتاً إنتباه السامع الى ما يريد المتكلم توصيله من مقاصد، عبر تشكيلات صوتية وتنغيمية فـ ((الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة أو النبر هو الذي يشكل التنغيم))[١٤]، ومن غير الممكن أن ننطق جملة على وفق مستوى تنغيمي معين من دون أن تظهر تمايزات صوتية علواً أو قوة أو وضوحاً في كلمات أو مقاطع أكثر من غيرها ((ولا ريب أن للنبر وظيفة نطقية تتصل بنظام أداء الكلام، أي بتوقيعات المتكلم، الذي يقسم الحدث

المنطوق الى أقسام ترتبط بأهمية المقاطع التي تؤديها من ناحية، وبإيقاع تنفسه الطبيعي من ناحية أخرى))[١٥].

ولا تحدث التنوعات الصوتية التنغيمية، أو تتشكل من دون أن يتخللها مد في بعض الأصوات وتكثيف في أصوات أخرى، إذ إن ((إنسجام الكلام في نغماته يتطلب طول بعض الأصوات وقصر البعض الآخر))[١٦]، وفي هذا الصدد يشير ابن جني عندما تعرض لقضية حذف الصفة بقوله : ((وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل ونحو ذلك))[١٧]، لقد أسهم المد في نطق هذه الجملة وهو هنا نوع من أنواع التنغيم في الكشف عن الحذف الحاصل في الجملة وهو الصفة (طويل). ويضيف ابن جني مثالاً آخر في المقام نفسه بقوله : وتقول : ((كان والله رجلاً فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، ولتتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك))[١٨]. إن مد الصوت اللغوي أثناء الكلام وتمطيطه لابد من أن يستغرق مدة زمنية ويلتزم منحى تنغيمياً معيناً، وهذا تابع بطبيعة الحال للموقف والظروف المحيطة بالكلام.

وهناك عنصر آخر يسهم في تنوع النمط التنغيمي وهو الوقف **(Pause)** و ((الوقف في السلسلة الكلامية إنقطاع أو صمت يقع في نهاية المجموعة النَّفسيّة، ويسبقه إنخفاض وتغير هابط في التنغيم الصوتي. وقد يطول الوقف في الزمن أو يقصر، ولكن مدته متناسبة عكساً مع عدد وروده في الكلام))[١٩]. وصلته بالتنغيم أصيلة، لأنه من العناصر المهمة التي يستند عليها التنغيم، وهذا ما أشار إليه الدكتور سلمان العاني، وقد توصل الى أن الوقف في العربية في سلسلة الأصوات على نوعين[٢٠]:

١. الوقف النهائي **(Final Pause)** ويرمز له بـ /↗/ وذلك عندما يكون التنغيم صاعداً **(Rising)** والآخر يرمز له بـ /↘/ حين يكون التنغيم هابطاً **(Falling)** ويرمز لغير النهائي **(Non – Final)** / ← /. ويظهر عادة في الجمل الخبرية.

٢. الوقف غير النهائي وهو أقصر مدى من سابقه، وهو نوع يشير الى إنتهاء التعبير أو التردد أو عدم إنتهاء الكلام.

إن تتابع السلسلة الكلامية لا يمكن أن يحدث من دون وقف بين أجزائه، ولا يتم ذلك عادة إلا وفق سنن متواضع عند أهل اللغة بحيث لو أخفق المتكلم في بعض المواضع بتجسيد نمط تنغيمي معين وفقاً لما يقتضيه سياق الكلام والحال كان حرياً بالمخاطب ان يكشف هذا الإخفاق، لا لشيء إلا لأن ((ما بين استمرار الكلام والوقف والإستئناف نغمات وتسلسل صوتي يدركها السامع وتعيها الأذن المدربة)) [٢١].

ومن خلال الطواف بين العناصر الصوتية التي تسهم في تشكيل التنغيم، لا يمكن مع ذلك كله أن نضع حداً صارماً له، لأنه ظاهرة لا تكاد يخلو منها كلام تتعدد بتعدد متكلمي اللغة وتتنوع بتنوع الأغراض والمقاصد، لذا ((من الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحدد طريقة النطق)) [٢٢]. وإنما يمكن مقاربتها واستشفافها كما أسلفنا.

ب- العناصر غير الصوتية

على الباحث المتأمل في حقيقة التنغيم بوصفه ظاهرة صوتية تتخلل الأداء الكلامي أن لا ينسى أن الأداء الكلامي لا يحدث إعتباطاً، أي من دون سبب أو من دون قصد أو غاية أو تحقيق فائدة أو إيصال معلومة، فهذه المسميات تعد غاية الكلام وهدفه، وإذا ما استرجعنا تعريف ابن جني مرة أخرى سنجد ربطه الدقيق بين الأصوات ضمن الأداء الوظيفي لها وبين تحقيق غرض أو مقصد منها، من هنا ومن خلال هذا المنظار العام نلج الى ما نروم بيانه في الجزئية من البحث، وهو أن هناك عناصر غير صوتية تدفع الى إحداث التنغيم في الكلام، فإذا كانت التغيرات الصوتية علواً وهبوطاً مداً وتكثيفاً تخضع لعمليات فيزيولوجية، فلابد أن يكون هناك سبب لإحداث هذه العمليات برمتها، وتتمثل بالظروف المحيطة بالكلام، وهي قرائن خارج نطاق الأصوات والكلام ((والواقع أن القرائن الخارجية المؤثرة في الكلام أكثر عدداً وأشد إتساعاً من تحصر أو توضع لها المعايير الثابتة، ولذا فهي متروكة عادة لتقديرات المتخاطبين بإعتبارهم ينتمون الى بيئة لغوية واحدة، ويتقاسمون نفس الإعتقادات والتخمينات

المرتبطة بالسياق، ويستطيع كل منهم أن يصل الى الإستنتاجات المطلوبة وعند اشتراكه في عملية التخاطب، مستعيناً في ذلك بتجاربه السابقة، وقدراته العقلية، وكفاءته التخاطبية التي تقتضي كونه قادراً على عمليتي الفهم والافهام بوصفه عضواً من أعضاء المجتمع اللغوي الذي ينتمي إليه)) [٢٣].

فالظروف المحيطة بالكلام والحالة النفسية للمتكلم هي التي توجه النمط التنغيمي للكلام وجهة معينة تتسق مع مقاصد المتكلم والدلالات التي يريد توصيلها الى المخاطب.

ولا يخفى على ذي لب أن التنغيم ركن أساسي في بناء الجملة، عندما يكون السياق الخارجي (مشاعر المتكلم والظروف المحيطة به) جزءاً لا يتجزأ من ظاهرة التنغيم، لأن الموقف الإجتماعي هو الخلفية التي تساعد على الفهم الكامل للكلام، من هنا تؤدي قرينة السياق وظيفة مهمة في تنويع درجات التنغيم الى جانب الايماءة وتغيير سحنة الوجه[٢٤].

ثانياً : دلالات التنغيم

إن الكلام عن دلالات التنغيم لا يلبث يعود بنا الى ذلك المدار الصوتي الذي يتشكل فيه التنغيم، لأنه ومن خلال النطق تتكشف دلالات التراكيب النحوية بمؤازرة عناصر أخرى تسهم في إبراز هذه الدلالات، بيد أن التنغيم يحتل حيزاً مهماً في هذه العملية، إنطلاقاً من كونه ((وسيلة صوتية تسعى للاستغناء عن الأدوات واللواحق التي تثقل البنى الصرفية، لتحديد الدلالة، بل إنه عنصر من عناصر الابلاغية في دراسة النماذج الأدبية الرفيعة في اللغات الحية))[٢٥]. من هنا تتجلى أهمية التنغيم وإسهامه في إنتاج الدلالة وتوصيلها الى المخاطب مباشرة من دون أن يتطلب ذلك منه إعادة الفكر والنظر والتأمل الطويل في الكلام، بل يطبع الكلام بطابع معين يفهمه السامع مباشرة، إذ يقوم التنغيم ((بوظيفة تحديد الوحدات المعنوية الكبيرة في الخطاب، وذلك بربط المقاطع التركيبية للجملة (أو الجمل المتتالية) في ما بينها، والحقيقة أن التنغيم(يميز) الجملة ونوعها ويحدد طريقة التواصل القائم بين المتكلم والمخاطب، وهو بذلك يميز في الجملة الواحدة، ودون أي تغيير في مكوناتها الفونيمية

والمرجعية، بين الصيغة الإخبارية، مثلاً، والصيغة الإستفهامية أو التعجبية، أو الأمرية، أو الإنفعالية)) [٢٦].

وكل ذلك ناتج كما هو معلوم عن التغيرات الصوتية التي يفرضها السياق ويستدعيها الموقف، مثال ذلك قولنا :

أنت ناجح أنت ناجح ؟ أنت ناجح !

فهذه التراكيب ومن خلال التنغيم تنتقل بنا بين عدة أساليب من دون أن يطرأ أي تغيير على بنية الجملة ومن دون أية إضافة أو حذف، فعبر التنغيم يمكن أن تكون الجملة خبرية محضة كما في الجملة الأولى، أو إستفهامية وهذا ما نجده في الجملة الثانية، أو تعجبية كما في الجملة الثالثة، إن دلالات هذه الجمل تظهر جلية عند النطق بها، بيد أنها عندما تكون مكتوبة تحل علامات الترقيم محل التنغيم لبيان دلالة الجملة، وإن كان ليس بالإمكان التعبير عن كثير من الإنفعالات من خلال هذه العلامات التمييزية، ولا سيما عندما يخرج أسلوب الإستفهام الى معنى لا يتعلق بطلب الفهم، وإنما يكون توبيخاً أو إنكاراً على سبيل المثال، وهنا يقوم النمط التنغيمي عند النطق بتحديد أو توقيع دلالة التركيب، وتكثر هذه الأساليب وتتنوع في القرآن الكريم والذي يعين أيضاً على تحديد دلالاتها السياق اللغوي الذي ترد فيه، ومن الشواهد التي يخرج فيها الإستفهام الى معان مجازية[٢٧] :

قوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) [إبراهيم : ٢١]، إذ خرج الإستفهام الى دلالات يفصح عنها سياق حال المتكلمين، ناهيك عن النمط التنغيمي الذي بوسعنا تلمسه واستشعاره من خلال هذه الصياغة التركيبية والهمزة و { أَمْ } قد جردتا عن الاستفهام لمجرد التسوية، لذا صارت الجملة خبرية، من هنا تُقرأ الاية الكريمة بنمط تنغيمي مستوٍ وليس تصاعدي، لأن سياق المقام يقتضي ذلك، و{ سَوَآء } اسم بمعنى الاستواء مرفوع على الخبرية للفعل المذكور بعده، لأنه مجرد عن النسبة والزمان، فحكمه حكم المصدر جزاء للجملة المذكورة بعد لتضمنها معنى الشرط، والجزع حزن يصرف عما يراد، فهو حزن شديد، وهو عدم احتمال الشدة، فهو نقيض الصبر، وإنما أسندوا كلاً من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير

المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضاً مبالغة في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم(٢٨).

وقوله تعالى (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) [الصافات : ٩٥]، وهنا أفاد الإستفهام الإنكار التوبيخي، اذ يبدأ النمط التنغيمي صاعدا في هذه الصياغة التركيبة، وينتهي هابطاً، لأن الاستفهام خرج الى معنى مجازي هو الانكار التوبيخي كما أسلفنا، وتوبيخهم على عبادة النحت مع أنهم يعبدون الأصنام، وهي ليست نفس النحت للإشارة إلى أنهم في الحقيقة إنما عبدوا النحت، لأن الأصنام قبله حجارة ولم يكونوا يعبدونها، وإنما عبدوها بعد أن نحتوها ففي الحقيقة ما عبدوا إلا نحتهم(٢٩).

وقوله تعالى (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) [هود : ٨٧] وهنا خرجت الآية الكريمة الى معنى التهكم، وهنا أيضا تبدأ الاية الكريمة بنمط تنغيمي صاعد لتصدرها بالاستفهام وانتهت بنمط تنغيمي هابط لخروج الاستفهام الى دلالة مجازية هي التهكم، ووقع الاستفهام على عمل تعبدي هو الصلاة، ولأن الصلاة أخص أعماله _شعيب عليه السلام– المخالفة لما اعتادوا جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم بناء على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد قصداً للتهكم به والسخرية عليه تكذيباً له فيما جاءهم به، فإسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي إذ قد علِم كل العقلاء أن الأفعال لا تأمر(٣٠).

وقوله تعالى (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) [الحجرات : ١٢] حيث أفاد الاستفهام التنفير.مستعملاً البيان القرآني في ذلك صياغات تركيبية جسدت صورة سلوك بشري ترفضه الإرادة الإلهية، وهو(تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً)(٣١).

وفي أسلوب الأمر أيضاً قد تتغير الدلالة من أمر على وجه الاستعلاء والطلب الى الالتماس أو الدعاء، وذلك راجع الى مقامات المخاطبين وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في

القرآن الكريم، مثال ذلك قوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [البقرة :٢٠١]، إذ خرج الأمر الى معنى الدعاء فالأمر موجه من أدنى الى أعلى، من هنا اتسم الخطاب بنمط تنغيمي تتجلى فيه الضراعة والخشوع والتذلل ، وهذا مايفصح عنه سياق الآية الكريمة، وقد يخرج الأمر الى معنى التهديد كما في قوله تعالى (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) [فصلت : ٤٠] تهديد شديد من الله سبحانه للكفرة الملحدين وليس المقصود حقيقة الأمر[٣٢]، والنمط التنغيمي بعد ذلك مستوٍ صاعد. وقد يخرج الأمر الى معنى الإهانة من ذلك قوله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان : ٤٩] اذ ورد الأمر على سبيل الهزء والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه، وقوله : (إنك أنت العزيز الكريم) خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدّية. والمقصود عكس مدلوله، أي أنت الذليل المهان، والتأكيد جاء ليعزز المعنى التهكمي. وضمير المخاطب المنفصل في قوله : (أنت)تأكيد للضمير المتصل في (إنك) ولا يؤكد ضمير النصب المتصل إلا بضمير رفع منفصل[٣٣]، وتبعاً لذلك جاء النمط التنغيمي بمستويين، اذ بدأ صاعدا بـ (ذق) وانتهى مستوياً هابطاً. او الى معنى التعجب[٣٤]، كما في قوله تعالى (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) [الإسراء : ٤٨]. والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنه بلغ من الوضوح أن يكون منظوراً. والاستفهام بـ (كيف) للتعجيب من حالة تمثيلهم للنبي عليه الصلاة والسلام بالمسحور ونحوه. والأصل في(ضرب) وضع الشيء وتثبيته يقال : ضرب خيمة، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال : ضرب دنانير، وهو هنا مستعار للإبراز والبيان تشبيهاً للشيء المبرز المبين بالشيء المثبت، واللام في(لك) للتعليل والأجْل، أي ضربوا الأمثال لأجلك، أي لأجل تمثيلك، أي مثلوك. يقال : ضربت لك مثلاً بكذا. وأصله مثلتك بكذا، أي أجِد كذا مثلاً لك، قال تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال) (النحل : ٧٤) وقال (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية) (يس : ١٣) أي اجعلهم مثلاً لحالهم.وجمع الأمثال هنا، وإن كان المحكي عنهم أنهم مثلوه بالمسحور، وهو مثل واحد، لأن المقصود التعجيب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من قولهم : هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو ساحر، هو مسحور. وسميت أمثالاً باعتبار حالهم لأنهم تحيروا فيما يصفونه _عليه الصلاة والسلام_ به للناس لئلا يعتقدوه

نبياً، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم فيلحقونه به[٣٥]. واتسمت الصياغة التركيبية بنمط تنغيمي صاعد.

والنهي أيضاً قد تتحول دلالته الى معانٍ مجازية، من دون أن يراد طلب الكف عن الفعل، وإنما قد يراد الدعاء مثلاً، ومن ذلك قوله تعالى (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا) [البقرة : ٢٨٦]، فالآية تساق ضمن أسلوب النهي، بيد أن المتكلم متوجه في كلامه الى ذات عليا (الله سبحانه وتعالى) فخرج النهي الى معنى الدعاء، وذلك بعد أن قرر الله لعباده أنّه لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها، لقّنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا يُنسخ ذلك من جراء غضب الله، وفصل بين الجملتين المتعاطفتين، بإعادة النداء بقوله (ربنا)، مع أنّه مستغنى عنه : لأنّ مخاطبة المنادى مغنِيَة عن إعادَة النداء لكن قصد من إعادته إظهار التذلّل والخشوع. والحمل مجاز في التكليف بأمر شديد يثقل على النفس، وهو مناسب لاستعارة الإصر. وأصل معنى الإصر ما يُؤصَر به أي يُربط، وتعقد به الأشياء، ويقال له : الإصار بكسر الهمزة ثم استعمل مجازاً في العهد والميثاق المؤكّد فيما يصعب الوفاء به [٣٦]، وقارىء هذه الآية لابد من أن يكون نطقه بها مشحوناً بتنغيم صوتي يجسد الضراعة والخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى.

إن تجسيد الدلالات للأساليب السابقة لا يمكن أن يظهر أو يفهمه السامع من دون أن يصاحبها نمط تنغيمي مناسب لكل أسلوب وبالمقابل يتناسب وظروف الخطاب، فهذه التغيرات الصوتية الدقيقة هي التي تفصح عن تلك الدلالات المتنوعة. ومن ثم يتضح أن نوع التنغيم ذو تأثير كبير في توجيه دلالات التراكيب اللغوية، إذ يكتسب الكلام نمطاً تنغيمياً صاعداً أو هابطاً أو مستوياً بحسب أغراض المتكلم، ويمكن تقسيم مستويات التحليل التنغيمي من جهة النوع الى ستة مستويات [٣٧]:

١. الصاعدة : تتمثل في الأمر، والترغيب، والتعجب، والإستفهام، والإثارة، والضراعة، والإهانة، والنهي المحض.
٢. المستوية : تتمثل في التقرير والخبرية، والتذكير، والنصح، والإرشاد، والنداء المحض، وطلب الإنتباه.
٣. الهابطة : وتتمثل في التمني والتهكم، وإظهار الأسف والحزن.

٤. المستوية الصاعدة : وتتمثل في التهديد، السخط والغضب، والتأييس.
٥. المستوية الهابطة : وتتمثل في الإنكار والتوبيخ، والعتاب، والتعجيز، والإهانة والسخرية.
٦. الهابطة المستوية : وتتمثل في الحيرة والتخبط.

إن دراسة الأصوات وخواصها وأقسامها علم جليل تبرز أهميته أكثر عندما تدرس الأصوات ضمن نطاق الكلام وأثرها فيه، فتبرز بذلك قيمتها التعبيرية والتمييزية، وقد تجلّت لنا هذه القيمة بشكل كبير من خلال هذا الإستعراض لظاهرة التنغيم التي تشكلها الأصوات عبر تمايزها وتغير نمطها التنغيمي أثناء النطق، فتتشكل بذلك قيمة تمييزية للتراكيب النحوية من خلال التغيرات الدلالية التي تطرأ عليها بفعل النمط التنغيمي، ويبرز ذلك من خلال لغة التخاطب اليومي، أي لا يعد التنغيم حصراً على الأساليب الأدبية الرفيعة وهذه ميزة تحسب له.

هوامش البحث:

(١) الألسنية العربية، ريمون طحان: ٢٨.
(٢) الخصائص، ابن جني ١/ ٣٣.
(٣) التنغيم في التراث العربي، د. عليان بن محمد الحازمي، (www.jewar.com).
(٤) الألسنية العربية: ٣٠.
(٥) ينظر: علم الأصوات العام – أصوات اللغة العربية، د. بسام بركة: ١٠٠.
(٦) دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر: ١٩٥.
(٧) علم اللغة العام/ القسم الثاني الأصوات، د. كمال بشر: ٢١٢.
(٨) التنغيم في التراث العربي، (www.jewar.com).
(٩) ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبدالسلام المسدي: ٢٦٦.
(١٠) الخطابة، ابن سينا: ٢٢٣ – ٢٢٤، نقلاً عن التفكير اللساني في الحضارة العربية: ٢٦٦.
(١١) ينظر: علم الأصوات العام: ١٠٠.
(١٢) ينظر: علم اللغة العام/ الأصوات: ٢١.

(١٣) المصطلح الصوتي عند علماء العربية في ضوء علم اللغة المعاصر، د. عبدالقادر مرعي العلي الخليل: ١٩٢.

(١٤) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير ابراهيم وحيد العزاوي: ١٣٥.

(١٥) علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب ودراسة د.عبدالصبور شاهين: ١٩٨.

(١٦) الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس: ١٥٦. وينظر: التنغيم في التراث العربي (www.jewar.com).

(١٧) الخصائص ٢/٣٧٠ – ٣٧١، وينظر: التنغيم في التراث العربي.

(١٨) المصدر نفسه ٢/٣٧١، وينظر: التنغيم في التراث العربي.

(١٩) علم الأصوات العام: ١٠٢.

(٢٠) ينظر: التشكيل الصوتي في اللغة العربية، فونولوجيا العربية، سلمان العاني: ١٩٣، نقلاً عن التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ٧١.

(٢١) التنغيم في التراث العربي (www.jewar.com).

(٢٢) أسس علم اللغة، ماريو باي ٩٥ ، نقلا عن دراسة الصوت اللغوي ١٩٦.

(٢٣) وصف اللغة العربية دلالياً، محمد محمد يونس علي: ١٣٨.

(٢٤) ينظر: التنغيم ودلالات التراكيب، د. نوزاد حسن أحمد، مجلة الآداب والعلوم (المرج)، العدد الأول، السنة الأولى ١٤٢٦ هـ – ١٩٩٦م.

(٢٥) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٤٣.

(٢٦) علم الأصوات العام: ١٠٠.

(٢٧) ينظر: معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي ٤/٦٠٦–٦١٠.

(٢٨) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، الالوسي ٩/٣٤٨.

(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ١٧ /١٨٩.

(٣٠) ينظر: التحرير والتنوير ١٢ /١٤١.

(٣١) الكشاف: جار الله الزمخشري ٦/٣٨٠.

(٣٢) ينظر: روح المعاني ١٨ / ٢٠٥.

(٣٣) ينظر: الكشاف ٦ / ٢٧٠ ، التحرير والتنوير ٢٥ / ٣١٦.

(٣٤) ينظر: معاني النحو ٤٠٩/٤.
(٣٥) ينظر: التحرير والتنوير ١٥ / ١٢٢.
(٣٦) ينظر: التحرير والتنوير ١٢ / ١٤٣.
(٣٧) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٥٧.

المصادر

- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة، مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة، ١٩٧٩م.
- الألسنية العربية – مقدمة – الأصوات – المعجم – الصرف، ريمون طحان، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٧٢م.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م)، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٣م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبدالسلام المسدي، الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس، ١٩٨١م.
- التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، الطبعة الأولى، دار الضياء للنشر والتوزيع – عمان، ٢٠٠٠م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق : محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية – بغداد.
- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، الطبعة الثانية، عالم الكتب – القاهرة ١٩٨١م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، مطبعة بولاق – القاهرة، ١٣٠١هـ.
- علم الأصوات العام – أصوات اللغة العربية، د. بسام بركة، مركز الانماء القومي – بيروت.

- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب ودراسة د. عبدالصبور شاهين، الناشر مكتبة الشباب – مصر ١٩٨٥م.
- علم اللغة العام / القسم الثاني – الأصوات، د. كمال بشر، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، http://www.altafsir.com.
- المصطلح الصوتي عند علماء العربية في ضوء علم اللغة المعاصر، د. عبدالقادر مرعي العلي الخليل، الطبعة الأولى، منشورات جامعة مؤتة – الأردن، ١٩٩٣م.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، ج٤، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر – بغداد، ١٩٩١م.
- وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية – دراسة حول المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح – ليبيا.

الدوريات

- التنغيم في التراث العربي، د. عليان بن محمد الحازمي، www.jewar.com.
- التنغيم ودلالات التراكيب، د. نوزاد حسن أحمد، مجلة الآداب والعلوم (المرج)، العدد الأول، السنة الأولى، ١٤٢٦ هـ – ١٩٩٦م.